نسمات الصوفية في شعرنا المعاصر

للاستاذ محمود بن الشريف
بادارة الشئون العامة بوزارة التربية

ومضة من ومضات السماء تنير القلوب وتعمر الافئدة فاذا هي خيرة نيرة واشراقة علوية تضيء بسناها السبل للسالكين فيتوغلون في المسالك والشعاب على هدي وبصيرة الى مثل الدين وقيمه وأهدافه وغاياته .

ومزاج من نشوة ونجوى ، وحب وتفان ، وامتشاج ، من دين ودنيا ، وخليط من جد وتجهد ورحيق من صفاء وسمو

ذلك جلال المذهب الصوفي وتلك هي ملامحه ، ومعالم طريقه الموصلة الى الحق ، والله هو الحق المبين

ومن هؤلاء الذين اغترفوا من المنهل الصوفي وتزودوا من ذلك الزاد الالهي شاعر اسلامي معاصر فاضت قصائده بحب الله ، والدعوة اليه ، ومؤازرة دينه وكشف فوائده وفرائده عن مساتير الروعة الالهية الكامنة في نفوس الربانيين من أعلام الصوفية وعلمائها . بعد أن نفذ في دقة وعمق الى هاتيك النفوس التي شفت وصفت وتحررت من أسار المادة وتحللت من ربقة العبودية الا لخالقها وبارئها فترجم لها وأظهر غما بها ونشر على الملأ ماحجب عنه من فضائلها وأفضالها وسيرها وأسرارها .

وصنيع شاعرنا الاسلامي المعاصر احمد شوقي في هذا كصنيع الغواص الماهر الذي يصل الى الأعماق والأغوار فيستخرج الدرر الكريمة واللآلئ الغوالي ثم ينزع عنها ظلالاتها وأصدافها فاذا هي جواهر مرة مجلوة تشع سنا وتشيع ضياء ونورا ، لافرو اذن أن نضح شعره بترانيم الهية وألحان قدسية تصقل النفوس وتصل بين الخلق والخالق بوشائج من نور وأسباب وصلات من فيض رباني تسكن الافئدة الحربة الموات فتجعلها حية نابضة بالحب عامرة بالايمان هاتفة لله واعية لشريعته داعية الى سبيله ولشوقي فوق عبقريته الشعرية الفذة التي جالت في كل ميدان فأتت بالعجب العجاب والساحر الباهر والرائع الرائق له فوق ذلك نفحات صوفية عادية هادفة انتزعها من تجاربه في دنيا الايمان واستخلصها من الهة الصوفية رواداها واستخلصت قبل ذلك كله من السيرة العطرة سيرة الصوفي الأول أمير الأنبياء محمد بن عبد الله عليه السلام

والذكرى وقفة بين الماضي والحاضر نستلهم منها العبر والعظة ونستخلص منها كل جميل جليل . ولشوقي وقفة طويلة في ذكرى المولد

النبوى الشريف ساح فيهـا بفكره وسبح بعاطفته فى جو روحى مشرق فنم شعره بعد ذاك بما جـال فى روعه آنئذ من رقائق ولطـائف وحكم وخاطرات فيظير للهائمين بالدنيا أن الحياة خداع ونعيمها سراب .. ونجمها الى أفول وأن راحتهم فى طاعة ربهم

وكل بساط عيش سـوف يطوى ... وان طال الـزمان بـه وطابا
ولا ينبيـك عن خلق الليـالى ... كمن فقـد الأحبـة والصحابا
أخا الدنيـا أرى دنيـاك أفعى ... تبـدل كل آونـة اهابا
وأن الـرقط أيقظ هاجعـات ... وأنزع فى ظـلام السـلم نابا
ومن عجب تشيب عاشـقيها ... وتفنيهـم وما برحت كعـابا
فمن يغـتر بالدنيـا فانى ... لبست بهـا فأبليت الثيـابا
لهـا ضحك القيـان الى غبى ... ولى ضـحك اللبيب اذا تغابى
جنيت بروضها وردا وشـوكا ... وذقت بكأسـها شـهدا وصابا
فلم أر غـير حكم الله حـكما ... ولـم أر دون باب الله بابا ..

وينظر الصوفى الى الدنيا على أنها وسيلة لغاية وطريق للآخرة يأخذ من هذه لتلك ويستغل أولاه لتأسيس أخراه

مصداقا لقول الله : « ولا تنس نصيبك من الدنيا » ولما ردد فى الاثـر « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا » .
هذه النظرة يبسطها لنا شاعرنا الاسلامى شوقى فى بيته :

وخـذ لبنيك والأيام ذخـرا ... واعط لله حصـته احتسـابا

ثم يسير شوقى فى هذه القصيدة النبوية مبلورا بعض أهداف التصوف ومنهجه فيقول :

وأن البر خـير فى حيـاة ... وابقى بعـد صاحبـه ثوابا
وأن الشر يصـدع فاعليـه ... ولـم أر خـيرا بالشر آبا

والتصوف فى حقيقته حض على البر وتحريض على الخير

وها هو يرسم بريشته الصوفية لوحة ظلالهـا حق وخطوطها صدق واطارها سمو وروحانية :

عجبت لمعشر صـلوا وصامـوا ... ظواهـر خشية وتقى كـذابا
وتلفيهم حيـال المـال صما ... اذا داعى الـزكاة بهـم أهابا
لقـد كتموا نصيب الله منـه ... كأن الله لم يحص النصـابا
ومن يعـدل بحب الله شـيئا ... كحب المـال ضل هـوى وخابا